حيتانُ البحر
Sea whales

ويأبى الوفاء عليه اندِمـــالا ويأبى التذكرُ أنْ يُشفِقا
شكا أسرَه في حبال الهـــوى وود على الله أنْ يُعتَقا
فلما فضى الحظُّ فكَّ الأسيـ ـرحـــنَّ إلى أسرهِ مُطلقا

إبراهيم ناجي

حِيْتَانُ البَحْرِ

كَانَ فَتىً عِصَامِيّاً مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، رَضِيَ بالذُّلِ والهَوانِ في سَبيلِ تَحْقِيقِ ذَاتِهِ، طَحَنَ الصَّبرَ مَسْحُوقاً وتَنَاوَلَهُ بمِلْعَقةِ الألمِ، حِينَمَا قَررَ أنْ يَمْتَطِي صَهْوةَ السَّفرِ للمجهولِ، رَكِبَ سَفينةَ الأملِ وراحتْ تَشُقُ عُبابَ بَحرِ الأحزانِ، فمِجْدَافاهُ الصَّبرُ والجَلدُ ..

صَقرٌ نَشَرَ جَنَاحيهِ عَلى مَفْرقِ رأسهِ، وهو في عُرضِ البَحرِ، يَصْرخُ مُتحدياً نفسَهُ ووطنَهُ، إما أن يكونَ أولا يكون، بينما أمواجُهُ تبتلعُ هذا الصُرَاخَ بجوفهِ، تتعلمُ منهُ، كيفَ يتحدى المِشطُ الصَّغيرُ أمَهُ وأبيهِ، إنْ فكرا أن يلتقماهُ وهو في ظُلماتِ قَاعهِ .

تعلمتْ منهُ الأسماكُ طُوالَ الرِحلةِ، والتي عاشتْ فيه أزماناً دونَ أنْ تتعلمَ مِن بعضِهَا شَيئاً، فقانُونُهم وفقَ قَانونِ الغَابِ الذي يأكلُ فيهِ الكبيرُ الصَّغيرَ، ويموتُ المريضُ فتَمُجُهُ أمواجُهُ العَاتيةُ نحوَ الشَّاطيء؛ ليكونَ لُقْمَةً سَائغةً تلتقطَهُ النوارسُ وهي سعيدة ، فيستشعر بموتهِ مازالَ لَهُ قيمةٌ ..

أسماكُهُ تتعاركُ في أعماقِهِ، بينما هو فوقَ السَّفينةِ يجذبُهُ حَبلان أحدهُمَا الأملُ المفقودُ، والثاني المجهولُ الذي ينتظرُهُ وراءَ البحرِ، كانتْ أولُ رحلةٍ لهُ عبرَ هذا المُحيطِ بحثاً عن مستقبلٍ ضَائعٍ مُؤقتٍ، يبحثُ عَنْهُ مَا يُعَبئهُ لِمُستقبلٍ دَائمٍ .

كانَ تِلْميذاً حَدثاً في العشرين مِن عُمرِهِ، لَمْ يُنفقْ عَليهِ أحدٌ، ماتَ أبوهُ طِفلاً، وأمُهُ لا تملكُ إلا ثوبَهَا الذي تَمْسَحُ بكُمهِ دموعَهَا، كُلّمَا رَأتْهُ يُصارعُ الحياةَ بفقرِهِ مِن أجلِ أنْ يكونَ، تُغبطَهُ وتشفقُ عليهِ ظَانةً، بأنَّهُ لا يعلمُ شَيئاً عَنْ فَقْرِ الحَياةِ، بينمَا كَانَ يَطْحَنُهُ فِكرُ فَقْرِهَا اللعِين .

لفظَهُ البحرُ للشاطيء على الجانبِ الآخرِ، وركبَ سِرْفِيسَاً مُتجهاً

إلى (عَمَّان) تلك العَاصمةُ الأردنيةُ الرابضَةُ في أحضانِ الجِبَالِ والتلالِ، نزلَ بموقفِهَا يُناظرُ مَا حَولَهُ، بَلدةٌ غَريبةٌ، ومبانٍ متفرقةٌ وجبالٌ شاهقةٌ، تحيطُ بهِ مِن كُلِ مَكَانٍ، وتحتضنُ البيوتَ والعمرانَ .

تلفتَ حَولَهُ فَوجَدَ سَاحَةً لمسجدٍ كَبيرٍ رائعِ البِنَاءِ، اتجَه صَوْبَهُ، وكانَ قُبيلِ إشرَاقةِ الشَّمسِ، إنَّهُ (مَسجِدُ الحُسينِ)، دَخَلَ بعدمَا خَلعَ نَعْلَيهِ وَتَوضَأَ وَصَلى الصُّبحَ ركعتين، ثُمَ خَرَجَ يَتَأبطُ حِذَاءَهُ وحَقِيبَتَهُ، وبعضَ الدَّنَانيرِ المَدْسُوسةِ في مَخبَأهِ السِّري، وقروشاً فِضيّةً .

أشْرَقَتْ الشَّمسُ بثَوبِهَا الأخَاذ، ودبتْ الحَّياةُ في كُلِ شَيء؛ فَبدأتْ تتنفسُ، وبَدأ النَّاسُ يبحثونَ عَن أرزاقِهم في الطُرقاتِ، وبينَ الأزِقَةِ، وكانَ نِداءُ السِّرفِيسِ أكبرُ نِداءً، يبحثُ هو الآخرُ عَن راكبٍ مِن أجلِ الرّزقِ، صَعدَ وهبطَ في المحطةِ التَاليةِ، إنَّهَا (سَاحَةُ مَوقفِ العَبدَلي).

فيه تجدُ حَرَكَةً غريبةً متداخلةً بينَ الرجالِ والنِسَاءِ والعُمَالِ، كُلٌ يُريدُ أنْ يَشُقَ طَريقَهُ نَحوَ حَافلةٍ تَتجِهُ بِهِ إلى وِجْهَتِهِ، بينمَا يَصطفُ على جَانبيهِ باعةُ الخُبزِ والبَيضِ والأجْبَانِ .

ابْتَاعَ الفتى رغيفَ خُبزٍ وبيضةً، ومنحَهُ البائعُ رَشَةَ مِلْحٍ فَوْقَ المُبتاع، فانتقَدَهُ بعَشرةِ قُروشٍ أردني، ثُمَ تناولَ طَعامَهُ على عَجَلٍ وشَربَ كُوباً مِن الشَّاي، ولمْ يعرفْ وُجْهَةً هو مُولِيهَا، وأيّ طَرِيقٍ يَسْلُكَ، وأيّ مَدينةٍ يقْصِدُهَا، وأيّ حافلةٍ يختارُهَا .. كَانَ مُشتتَ الفكرِ لَمْ يعرفْ شيئاً عَن أيّ شَيءٍ سِوى إنه غَرِيبٌ لَفَظَهُ البَّحْرُ للشَاطِيء كَمَا يَلْفُظُ أسْمَاكَهُ المَيتَةَ ..

تعْضُهُ الأسئلةُ، وتُناوشُهُ الأوهامُ، وتَطْحَنَهُ الظُنُونُ وَسَطِ هَذا المَجْهولِ، الّذِي لَفَهُ بِشِباكهِ بينَ يأسٍ ورجاءٍ، بين أملٍ مَشنُوقٍ ووطنٍ يَئِدُ أبناءهُ مَتى يَخْرجونَ مِن رَحِمهِ المُترعِ بالهمومِ .

صَرَخَ بُوقُ بَاصٍ مُتجهاً إلى (إربد)، فاحتَضَنَ أَمْرَهُ وتَقنْفذَ في بَطْنِهِ وجَلسَ مُتكئاً، ودفعَ أُجْرَتَهُ حَاملاً حَقيبَتَهُ عَلى رُكْبَتيهِ، وعيناهُ كَميراتَان تَرصُدان الداخلَ والخارجَ، تَنْتَشِي نَفْسُهُ حِيناً، وتُفْزِعُهُ غُصَّةٌ أحياناً،

حِينما يَرى نَفْسَهُ مُسَافراً جَوْفَ المَجْهُولِ ...

قطعَ حُلمَهُ المُؤقت، وعَادَ إلى حُلمِهِ الأكبر، جَاءَ يحملُ فِي جُعبتِهِ الألمَ وفِي يَدِهِ حقيبةُ ملابسِهِ، وبَهَا دَفترٌوقَلمٌ وكِتَابٌ، كانَ يَقرأ فيهِ طُولَ رِحْلَتِهِ، كيفَ جَابَهَ السِّندبادُ الأمَواجَ العَاتيةَ وحَققَ حُلمًا كَانَ يُرَاودُهُ .

تأتي حِيتَانُهُ فتُخرجُ رؤوسَها للهواءِ، وتُنكِسُهَا في المَاءِ، فاتحةً زَعَانفِهَا كَمراوحٍ يَابانيةٍ، ولَمْ تَكفْ عَن لَعِبِهَا، بينمَا كانَ يُناظرُهَا مُغتبطاً مُتناسياً هُمُومَهُ ومَا قَرأهُ عَنْ السِندبادِ، والسفينةُ تَمخُرُ عُبابَهُ، لمْ يتراءى لَهُ سِوى صَفحةٍ فِضِّيةٍ مَصْقُولةٍ، عليها أحرفٌ هيروغليفية، لم تَفُكْ رُمُوزَهَا سِوى الشَّمسِ حينما أرسلتْ أشعتَهَا العَموديةِ، بينمَا زَبدُ البَحرِ خلفَها يَشُقُ طَريقاً أبيضَ ناصعاً .

متى استوتْ في مرساها، واطلقتْ صفاراتُ نذيرٍ بالوصُولِ، أخذَ يلملمُ أشتاتهُ المُبعثرة، وعادتْ الحيتانُ للقاعِ، وقذفتْ السَّفينةُ بهِ خَارجَ رَحمِهَا للوطنِ المَشْنوقِ بِأبنائهِ .

فرّتْ دمْعَةٌ من مُقلتيهِ على نفسهِ، وفراقِ صُحبةٍ حَرَسَتْهُ مِن سِبَاعِ البَحرِ حَتَى وَصَلَ .. وعَادَ إلى هَديرِ عَجَلَةِ الحَياةِ، شَغُوفاً بأنْ يُعاودَ الرِّحْلَةَ؛ ليُقَابِلَ أصْدِقَاءَهَ حِيتانَ البَحْرِ.. !!